رحلات السندباد



الرحلة الثانية

أرض الألماس

٥٥٥٥

رحلات السندباد



الرحلة الثانية

أرض الألماس

تأليف وإعداد
رفعت عفيفي

الدار النموذجية
للطباعة والنشر



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com



أحِبَّائي وأعِزَّائي

كُنْتُ قدْ حدَّثْتُكُمْ عنْ (رِحْلَتي الأُولىٰ)، والأهْوالِ الَّتي مررْتُ بها، والأخطارِ التي واجَهْتُها، وقدْ كَتَبَ اللّٰهُ لِي السَّلامةَ فَعُدْتُ إلى (بغْداد) مُحَمَّلاً بالهَدايا الطَّائِلَةِ، والتجارةِ الرَّابِحَة، واسْتَعَدْتُ قصْري وأعدْتُ لهُ البهْجَةَ والفرْحَةَ، وفتحْتُ مَتْجَرَ أبي . . . وغَدَوْتُ مُقدَّماً علىٰ تُجّارِ المَدِينة .

ومَضَتِ الأيّامُ والأَعْوَام . . .

وأَنَا فِي (بغْدَاد) هادِئُ الحَالِ، مُطْمَئِنُّ الخَاطِرِ والبَالِ، يَزْدَادُ مَالِي وتتَّسِعُ تِجارَتِي ويَكدُّ عُمَّالِي .

وذاتَ يومٍ حضَرَ إلى مَتْجَرِي أحدُ التُجَّارِ الَّذِينَ كانُوا مَعِي في رِحْلَتِي الأُولى، ولمْ أكُنْ قدْ رأيْتُهُ بَعْدَ عوْدَتِنا، فقمْتُ إليْهِ وعانقْتُهُ . . وسلَّمْتُ عليْهِ، وجلَسْنا نستعيدُ ذكرياتِنَا ونتذكَّرُ كُلَّ ما مَرَّ بِنا في سَفَرِنَا . .

فتذكّرتُ المَلِكَ والمَلِكَةَ والأميرَةَ الصَّغيرَةَ، وكيْفَ أنّي كُنْتُ قدْ وعَدْتُهُمْ بِزِيارَةٍ، مِمّا حرَّكَ أشْواقِي إلىَ السَّفرِ.. وإلىَ رُؤْيَتِهِمْ.

وسَأَلْتُ الرَّجُلَ عَمّا إذا كانَ هُنَاكَ مَرَاكِبُ وسُفُنٌ تذهَبُ إلىَ بلادِهِمْ، فأجَابَنِي بأنَّ كَثِيراً مِنْهَا يذهَبُ إلى هُنَاكَ؛ وأنَّهُ علىَ آسْتِعْدَادٍ لِأنْ يُسافِرَ مَعِي إذا رَغِبْتُ في ذَلِكَ.

فاتَّفَقْنا علىَ موعِدٍ لا يَتَعَدّى آلشَّهْرَيْنِ، نُجهِّزُ خِلاَلَهُما أنفُسَنا ونشُدُّ بَعْدَ ذلِكَ رِحَالَنا.

ومَضَتِ آلمُدَّةُ.. وأصْبَحْتُ جاهِزاً مُسْتَعِدّاً، وأَوْصَيْتُ عُمّالي بِرِعَايَةِ متْجَرِي وأعْمَالي، وتَرَكْتُ آلقَصْرَ في حِراسَةِ الخَدَمِ، بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُ لَهُمْ مِنَ الأَمْوالِ وآلمَؤُونَةِ مَا يَكْفِيهِمْ لِمُدَّةِ عامَيْنِ.

ثم خَرَجْتُ، أنا وزَمِيلي، في قافِلَةٍ كَبيرَةٍ مُحَمَّلَةٍ بكلِّ أنْواعِ التِجَارَةِ والهَدَايا.



وبَعْدَ أيامٍ بَلَغْنا مَدِينَةَ «البَصْرَة»، فَأَقَمْنا أيَّاماً بانتظارِ سَفِينَةٍ تَكُونُ وِجْهَتُها إلى حَيْثُ نُرِيدُ ونَقْصِدُ.

وما إنْ رَسا المَرْكَبُ فِي المِيناءِ حتّى أَلْقَيْنا بأحمالِنا ومتاعِنا مَعَ مَجْموعَةٍ مِنَ التجّارِ الَّذِينَ سَعِدُوا بوجُودِي بَيْنَهُمْ، حِينَ عَرَفُوا مَنْ أنا، وكانَتْ أخْبارُ رِحْلَتِي الأُولى قَدِ انْتَشَرَتْ بَيْنَ جَميعِ التُّجّارِ وأَرْبابِ التجارةِ.

لَمْ يَمْضِ سِوَى وَقْتٍ قَليلٍ حتّى طابَتْ لَنا الرِّيحُ فأقْلَعْنا على بَرَكَةِ اللّهِ تارِكِينَ «البصرة» وتَوَغَّلْنا فِي أعماقِ بَحْرٍ لا نِهايَةَ لَهُ.

نَزَلْتُ إلى بَطْنِ المَرْكَبِ حيثُ تَرَكْتُ زَمِيلِي بِجوارِ أحْمالِنا وأَخَذْنا نُعيدُ تَرْتِيبَ وَضْعِها لِيَسْهُلَ عَلَيْنا فَتْحُها وإخراجُ ما نُرِيدُهُ مِنْها عِنْدَما نَشاءُ، ثُمَّ جَلَسْنا نأكُلُ حتّى شَبِعْنا وحَمِدْنا اللّهَ...، واسْتَسْلَمَ زَمِيلِي للنومِ، فتَرَكْتُهُ وصَعِدْتُ إلى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، حيثُ كانَ بَعْضُ التجّارِ المُرافِقِينَ، فَأَخَذُوا يسألُونَنِي عن أحْوالِ البَحْرِ وأَهْوالِهِ، وعَنِ الجَزِيرَةِ الَّتِي ثارَ بُرْكانُها. والجَزِيرَةِ الَّتِي أنْقَذْتُ فِيها الأَمِيرَةَ الصَّغِيرَةَ...، وعَنِ البِلادِ الَّتِي نَقْصِدُها.. ومَبَقَ لِي أنْ عَمِلْتُ وزيراً عَلَيْها...

واسْتَمَرَّ الحَدِيثُ بعضَ الوَقْتِ، حتّى أوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلى الغُرُوبِ، فانْفَضَّ الجمْعُ وهَدَأَ الكلامُ، وأَوَى البعضُ إلى فِراشِهِ ودِثارِهِ في بَطْنِ المَرْكَبِ، وانْصَرَفَ الآخَرُونَ لِبَعْضِ شُؤُونِهِمْ...، وظَلَلْتُ وحْدِي أنْظُرُ إلى الماءِ والسَّماءِ، حيثُ كانَ قُرْصُ الشمسِ فِي الأُفُقِ البَعيدِ يَخْتَفِي تَدْرِيجيّاً. لِيَنْعكِسَ مِنْ ثَمَّ على صَفْحةِ القمرِ نُوراً فِضِّيّاً...

امتلأَتْ نَفْسِي بمَزِيجٍ مِنَ السعادةِ والرَّهْبَة..

كانَتِ النجومُ والكواكبُ في السماءِ تتألَّقُ كحبّاتٍ مِنْ عقْدٍ لُؤْلُؤِيّ... تَهْدِي الحائِرِينَ، وتُرْشِدُ التائِهِينَ، وتُنيرُ طريقَ الضّالِّينَ.

وعَجِبْتُ لِقُدْرَةِ آللَّهِ تَعالى، خالق الكوْنِ، ومنظِّمِ أفلاكِهِ التي تَسْبَحُ في الفَضاءِ الرَّحْب. . . ولا يَخْتَلُّ نِظامُها. . .، على مَدَى مَلايينِ السِّنين.

وأذْبَلَتْ نسائِمُ البحْرِ عيْنَيَّ، فشَعرْتُ بالنُّعاسِ يدِبُّ إلى أَجْفاني، فقَصَدت إلى حَيْثُ فِرَاشي، وأَخْلَدْتُ لِلنَّوْم.

في صباح اليوْم التالي. . . كانت السماء مُلَبَّدَةً ببَعْضِ الغُيُوم، والرِّياحُ تشتدُّ بَعْضَ الشَّيْءِ، فَمَكَثْنا في جَوْفِ السَّفِينَةِ خَوْفاً منَ الأَمْطارِ. . . ومضى النهارُ كلُّهُ على هذهِ الحَالِ إلى دُخُول اللّيْل. . .، حيْث اشْتَدَّ البرْدُ. . .، فتدَثَّرْتُ بالأغْطِيَةِ السَّمِيكَةِ ونِمْتُ.

ثُمَّ أفقْتُ فَجْأَةً مَذْعُوراً على هزّاتٍ عَنيفَةٍ. . . والرِّجَالُ مِنْ حَوْلي في فَزَعٍ كبيرٍ يصْرخُونَ ويَصِيحُونَ. . .، وسَمِعْتُ لطمَاتِ الأمواجِ على جوانِبِ المرْكَبِ كأنَّها الصَّوَاعِقُ المُتَلاحِقَة. . .، ممَّا جعَلَ السفينةَ تتمايَلُ بِشِدَّةٍ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمَالِ. . .، وتَعْلُو وتَهْبُط. . .



ولاحَ لنا الموْتُ قريباً . . ولمْ يَعُدْ أمامَنا أيُّ أَمَلٍ بالنَّجاةِ.

واشتدَّتْ ضَراعَتُنا وتَوسُّلاتُنا إلى اللهِ العليِّ القَديرِ . . أنْ يَرْأفَ بنا ويَرْحَمَنا.

وآنْتابَني حُزْنٌ عَميق، وشعُورٌ بالأسَىَ والنَّدَمِ علىَ تَرْكي الْحَيَاة الهَادِئة الَّتي كنتُ أعِيشُها، ورغْبَتِي المجْنُونَة في السَّفرِ بَعْدَ الَّذي لقيتُهُ فيه مِنْ قَبْلُ . . .

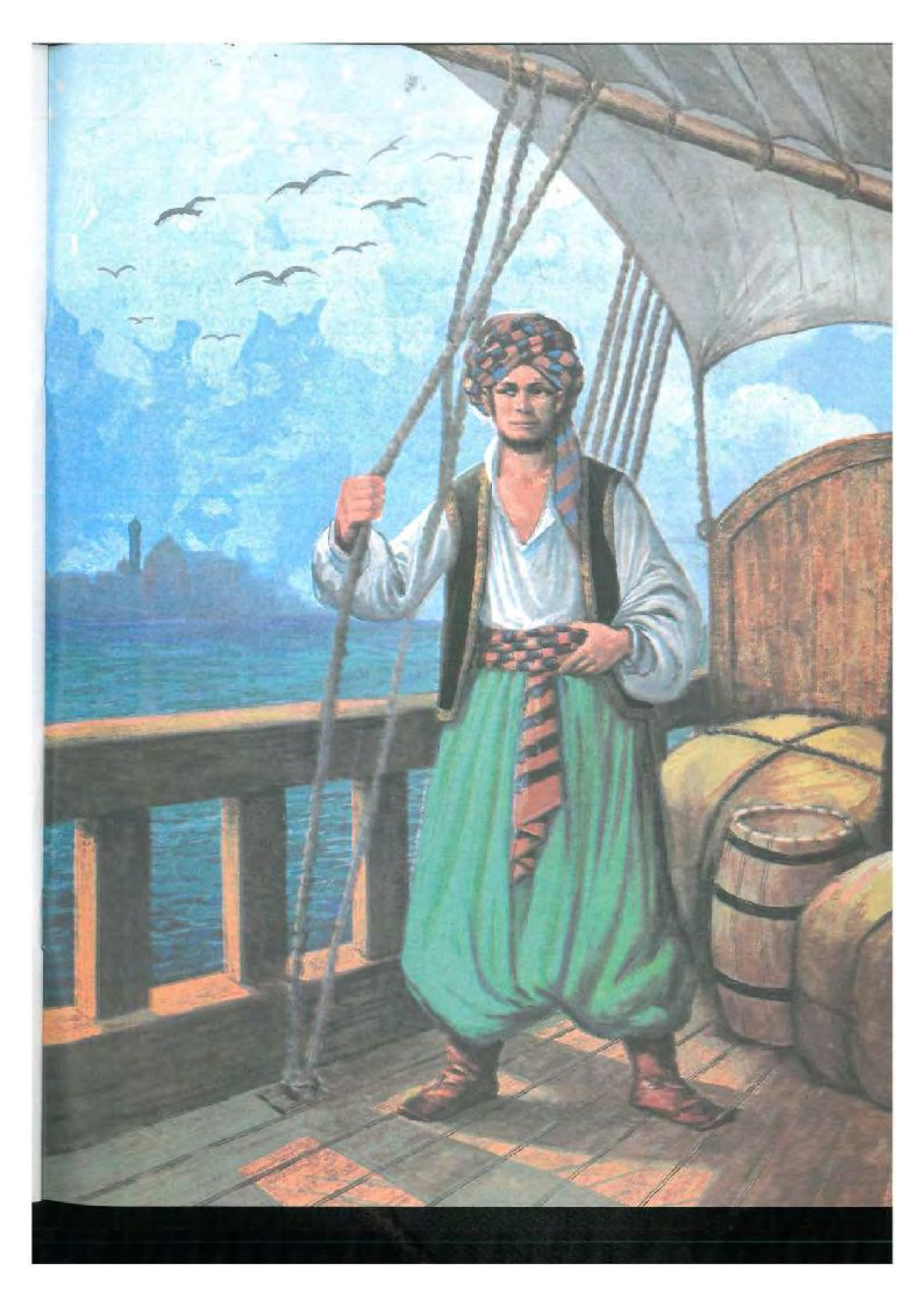
وأسْلَمَني الحُزْنُ الشديدُ إلى حالَةٍ من النُّعاسِ !!! فآستَلْقَيْتُ على فِراشي ثانيةً وأغمضْتُ عينَيَّ، وأنَا لا أدْري أهُوَ نَوْمٌ؟ أمْ يَأْسٌ؟ أمْ إغْمَاء؟

كُلّ الَّذي حَدَث. . . أنَّني صَحَوْتُ مَرَّةً أُخْرى فرأيْتُ الجَميعَ مِنْ حوْلي نِياماً، والسَّفِينَة تتهادى ببطْءٍ فَوْق صَفْحَةِ الْماء . . .

تَرَكْتُ الفِرَاشَ وأسرَعْتُ بالصُّعُودِ إلى السَّطْحِ، فاسْتَقْبَلَني ضَوءُ النَّهارِ وأشِعَّةُ الشَّمْسِ، ونَظَرْتُ إلى البَحْرِ فإذا هُو هَادِيء. . . سَاكِنُ الأمْواجِ . . ، فَقُلْتُ: سُبْحانَ مُغَيِّرِ الأحْوالِ . . .

ظلَلْتُ في مَكاني أسْتَمْتِعُ بدِفْءِ الشَّمْسِ. . . ، ثُمَّ بَدَأَ الرُّكَّابُ يَتَوافَدُونَ إليَّ، ويَقِفُونَ إلى جَانِبي، وعَلِمْتُ مِنْهُمْ مَا حَدَث. . ومَا لاقُوه في ليلَتِهِم الرَّهِيبَةِ مِنْ قُوَّةِ البَحْرِ وغَضَبِهِ . . . ، وكانُوا في عَجَبٍ من نَوْمِي ولا مُبالاتي . . ، فأخْبَرْتُهُمْ أنِّي لَقِيتُ مِنَ الأهْوالِ والمَخاطِرِ ما يَفُوقُ الَّذِي حَصَل أضْعَافاً مُضاعَفَة.

مَضَتِ الأيَّامُ بعْدَ ذلِكَ متعاقِبَةً. . . هادِئَةً لا يُعَكِّرُ صَفْوَها شَيْءٌ. . . ، ثُمَّ لاحَتْ لَنا عَلى البُعْدِ جَزيرَةٌ كَبيرَةٌ تَكسُو جِبالَها الغاباتُ ذاتُ الأشْجارِ العَالِيَةِ، فَفَرِحْنا لِرُؤْيَتِها، وسألْتُ قُبْطانَ المرْكَبِ عنِ آسْمِها، فأجابَ بأنَّهُ لا يعرِفُ عَنْها شَيْئاً، ولَمْ يَسْبِقْ لَهُ أنْ مَرَّ بِها أو رآها، فقُلْتُ لَهُ: وكَيْفَ لا تَعْرِفُها وأنْتَ تَعْرِفُ طُرُقَكَ في هَذا البَحْرِ الواسِعِ الْمُمْتَدِّ؟ فأجَابَ بأنَّهُ رُبَّما يكونُ قَدْ ضَلَّ الطريقَ بِسبَبِ العاصِفَةِ التي واجَهْنَاها . . .



واستحْلَفني أنْ لا أُخْبِرَ أحداً مِنَ الركّابِ . . . ، على أنّه بِمُجَرَّدِ نُزُولِنا إلى الجَزيرَةِ وتَزَوُّدِنا بحاجَتِنا مِنْها سَيَهْتَدي في اللَّيْلِ بالنُّجومِ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ .

نزلْنا إلى الجَزيرَةِ . . . فَوَجَدْتُها مُتْعَةً للعيْنِ وبَهْجَةً للنَّفْسِ ، وطَلَبَ إلَيْنا القبْطانُ أنْ نَتَجَوَّلَ خِلالَها ونَجْمَعَ مِنْها ما نَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ الثمارِ وَالْماءِ الْعَذْبِ .

وقَدْ وَضَحَ لَنا مُنْذُ البِدايَةِ أنّها خالِيَةٌ تماماً مِنَ النّاسِ . . . حَيْثُ لَمْ نُصادِفْ بَشَراً علىَ الإطْلاقِ، وإنْ كانَتْ فِيها كُلُّ مُقَوِّماتِ الْحَياةِ وأَسْبابِ الْعَيْشِ .

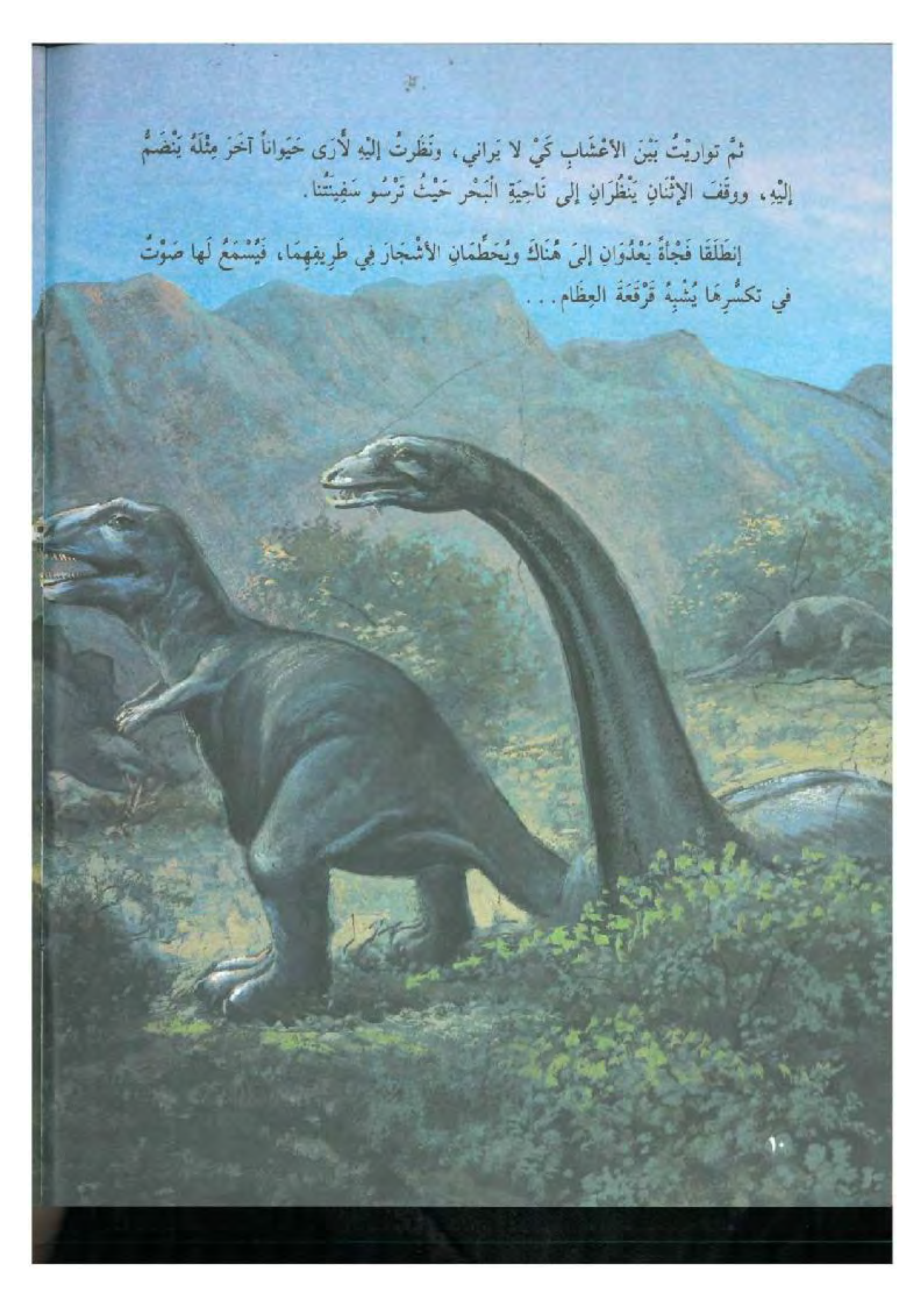
وعجِبْتُ أكْثَرَ وأنَا أتجوَّلُ فيها من ارْتِفاعِ أشْجارِها وعُلُوِّ أغْصانِها، واطْمَأَنَّتْ نَفْسِي لِعَدَمِ رُؤْيَةِ براكِينَ فِيها؛ وهَذا ما جَعلَني أتَوَغَّلُ بِداخِلِها وأنَا في مأْمَنٍ مِنْ أيِّ خَطَرٍ . . .

وأخَذْتُ أنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ مسْتَمْتِعاً بِما أرَى حتَى كَلَّتْ قَدَمايَ فجلَسْتُ لأسْتَرِيحَ قَلِيلاً، وكُنْتُ منْفرِداً عنْ إخْوانِي وزُمَلائِي . . .

وحانَتْ مِنِّي الْتِفاتَةٌ إلى الأشْجارِ الْبعِيدَةِ فَخُيِّلَ إليَّ أنّها تَتَحرَّكُ مِنْ مَكانِها، وظَنَنْتُ أنّها أوْهامٌ . . ، فأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ثُمَّ فَتحتُهُما ثانِيَةً ورَأَيْتُها تَتَحرَّكُ حَقِيقَةً . . ، فَتمَلَّكَتْنِي الدَّهْشَةُ . . . وأعْقَبَها الرُّعْبُ والهَلَعُ . . .

لأنَّ هذهِ الأشْجارَ المتَحرِّكَةَ لَمْ تكُنْ سِوَى طَعَامٍ فِي فَمِ حَيَوانٍ هائِلِ الحَجْمِ . . . بَشِعِ الخِلْقَةِ، لهُ رأسٌ يُشبِهُ رأْسَ السُّلَحْفاةِ، وأسْنانٌ كأسْنانِ التِمْساحِ ، ينْتَصِبُ واقِفاً علَى قدمَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ . . . ، ويَداهُ قَصِيرَتانِ . . ، وهُوَ فِي وِقْفَتِهِ أعْلَى مِنْ كُلِّ الأشْجارِ .

حاوَلْتُ النُّهُوضَ والجَرْيَ قَبْلَ أنْ تَقَعَ عيْنُهُ عَلَيَّ ، فإذا بِهِ يَصْرُخُ صَرْخَةً جعلتْنِي أجْمُدُ في مَكانِي كالتِّمْثالِ ولا أقْدِرُ عَلَى الحَرَكَةِ .



ثُمَّ تواريْتُ بَيْنَ الأعْشَابِ كَيْ لا يَراني، ونَظَرتُ إليْهِ لأَرَى حَيواناً آخَرَ مِثْلَهُ يَنْضَمُّ إليْهِ، ووقَفَ الإثْنَانِ يَنْظُرَانِ إلى نَاحِيَةِ الْبَحْرِ حَيْثُ تَرْسُو سَفِينَتُنا.

إنطَلَقَا فَجْأةً يَعْدُوَانِ إلىَ هُنَاكَ ويُحَطِّمَانِ الأشْجَارَ في طَرِيقِهِمَا، فَيُسْمَعُ لَها صَوْتٌ في تكسُّرِهَا يُشْبِهُ قَرْقَعَةَ العِظَام . . .



حاوَلْتُ أنْ أُسْرِعَ إلى زُمَلائِي قَبْلَ أنْ يدركهُمُ ٱلوَحْشَانِ. . ، لَكِنَّ ٱلوَقْتَ قَدْ فَاتَ، وأنّى لِي أنْ أَسْبِقَ خُطُواتِهِمَا. . .

وحينَ وصلْتُ رأيْتُ ما جعَلَنِي أفْقِدُ الوَعْيَ وأقَعُ إلى الأرْضِ مَغْشِيّاً عَلَيَّ ؛ كانَ الوحشانِ يَقِفَانِ وفي فَمِ كُلٍّ مِنْهُمَا أحَدُ الرِّجالِ. . . كأنّهُ عُصْفُورٌ صَغِيرٌ بَيْنَ فَكَّيْ أَسَدٍ. . .

أمّا ٱلزُّمَلاءُ الباقُونَ فَقَدْ فَرُّوا. . ، ولكِنْ إلى الماءِ يُلْقُونَ بأنْفُسِهِمْ في اليَمِّ، بِقَصْدِ السِّبَاحَةِ إلى المَرْكَبِ؛ وحَالَ بَيْنِي وبَيْنَ الشَّاطِئِ هَذانِ الوَحْشَانِ، فَوَقَفْتُ في مَكانِي لا أَقْوى عَلَى الحَرَكَةِ. . . وَذَهَبَ صَوْتِي فَلَمْ أَقْدِرْ على الصِّيَاحِ ؛ وأقْلَعَ المركبُ فارًّا بالنّاجين عَلَيْه، تارِكاً وَرَاءَهُ جُثَثَ الرِّجالِ الّذِينَ وطِئَهُمُ ٱلوَحْشانِ بِأقْدامِهِمَا، ورجُلاً بعيداً عَنْهم يَنْدُبُ حَظَّهُ ويَنْعى سُوءَ مَصِيرِهِ. . . هُوَ أَنَا.

انْتَهَى الوَحْشَانِ مِنْ وجْبَتِهِما وتركا المَكانَ عائِدَيْنِ مِنْ حَيْثُ أتَيا، ومضتِ السفِينَةُ بَعِيداً بِمَنْ نَجا، وبَقِيتُ وَحْدِي. . . يَكَادُ الحُزْنُ يَقْتُلُنِي ؛ وَلَمْ أعُدْ أدْرِي مَاذَا أفْعَلُ بَعْدَ أنْ فَقَدْتُ قُدْرَتِي عَلَى الحَرَكَةِ والتَّفْكِير.

لَمْ يَعُدْ أَمَامِي إلاّ أنْ أسْتَسْلِمَ لِقَدَرِي ٱلمَحْتُوم، أوْ أقْتُلَ نَفْسِي بِيَدِي قَبْلَ أنْ أُصْبِحَ طَعَاماً لِهٰذِه الوُحُوشِ ٱلبَشِعَةِ المُخِيفَة.

أيُّ مَصِيرٍ يَنْتَظِرُنِي؟

هلْ لي مِنْ مَهْرَبٍ مِنْ هَذِهِ الجَزِيرَةِ ٱلمَلْعُونَةِ؟

في رِحْلَتِي السَّابِقَةِ تعلَّقْتُ بِشَجَرَةٍ قَذَف بِها طُوفَانُ حُمَمِ البُرْكَانِ الثَّائِرِ إلى المَاءِ

ونَجّانيَ آللَّهُ. . ، أمّا الآنَ فمِنْ أيْنَ لي بِشَجَرَةٍ مثْلها؟ وإنْ وَجَدْتُ. . . فكَيْفَ أحْمِلُها وَحْدي؟ وأيْنَ تَذْهَبُ بي وأنا لا أرَى أثراً لِجَزيرَةٍ أُخْرى؟ رُحْماكَ رَبّي!!! لكَ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ، وأنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير.

هَذا ما كُنْتُ أُحدِّثُ بِهِ نَفْسِي وأنا قَابعٌ فِي مَكاني أبْكِي حَظِّي العَاثِرَ، ولمْ يَكُنْ أمامِي ما أفْعَلُه سِوَى أنْ أظَلَّ عَلى حالِي. . ، فَمَنْ يَدْري. . . ؟ رُبَّما يَعُودُ المَرْكَبُ مَرَّةً أخْرى، قدْ يُخْبِرُهُمْ زَميلي أنّي لا زِلْت هُنا، لَكِنْ رُبّما ظَنُّوا أنّي متُّ. . . ! أو أنّي صِرْتُ طَعاماً في بُطُونِ هٰذِهِ الوُحُوش. . .

لا. . . لا. . لا يُمْكِنُ أنْ يَعُودوا. . .

لَقَدْ رَحَلُوا فَارِّينَ بأنْفُسِهِمْ ناجِينَ بأرْواحِهِمْ وأجْسادِهِمْ. . .

سأظَلُّ وحْدي هُنا أمامَ تِلْكَ الوُحُوشِ الَّتي هِيَ أقْوى مِنَ الشياطِينِ، وأعْتَى مِنَ المردَةِ.

انتَهى حَديثي مَعَ نَفْسِي. . .

وانتَهى مَعَهُ لَيْلٌ طويلٌ عَصَفَ بأفْكارِي وعَقْلِي ومَشاعِرِي، وأشْرَقَتْ شَمْسُ يَوْمٍ جَديدٍ، قَدْ يَكُونُ آخِرَ أيّامِ عُمْري.

وساعَدَ هَواءُ البَحْرِ وبُرُودَةُ الجَوِّ على إحْساسي بالجُوعِ الشَّديدِ، فَتَسلَّلْتُ فِي حَذَرٍ إلى دَاخِلِ آلجَزِيرَةِ أبْحَثُ عَنْ بَعْضِ الثِّمارِ، فَشاهَدْتُ عَنْ بُعْدٍ قُبَّةً بَيْضاءَ، فاتَّجَهْتُ مُتَمَنِّياً أنْ أجِدَ فِيها سَاكِناً مِنَ البَشَرِ يُؤْنِسُ وَحْدَتي ويَعْمَلُ عَلى حِمايَتِي.

وما إن اقْتَرَبْتُ مِنْها حَتّى رأيْتُ أغْصانَ الشَّجَرِ تُحِيطُ بِهَا مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وأدْهَشَني أنْ لا أرَى لَها باباً، أو نافِذَةً أو ثُقْباً، وإنَّما كانَتْ علىَ هَيْئَةِ بَيْضَةٍ كَبيرَة.

وَبَيْنَما كُنْتُ أدورُ حَوْلَها بَحْثاً عَنْ مكانٍ أنفذُ مِنْهُ إلى دَاخِلِها سمِعْتُ ضرباتٍ عَنِيفَةً، وقرقَعَةَ أشْجَارٍ تتحَطَّمُ..، فآنطَلقتُ أجْرِي بعيداً وآختبأْتُ خَلْفَ صخْرةٍ كَبيرةٍ، ورأيْتُ الوَحْشَ المُخِيفَ للمَرّةِ الثَّانِيةِ، كانَ واقفاً أمامَ القُبَّةِ البَيْضاء... يَتَشَمَّمُها بأنْفِهِ ويلْعَقُ سَطْحَها بِلِسانِهِ، ثمَّ رفعَ إحْدَى يَدَيْهِ... وَكَادَ يَهْوِي علَيْها... لَوْلا أنْ سَمِعَ صرخةً آتِيةً مِنْ أعْلَى، فرفَعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ..، وفعلْتُ أنَا مِثْلَه، فرأيْتُ طائراً ضَخْماً يُحلِّق... ثُمَّ ينقضُّ بِسُرْعَةٍ على هٰذا الحَيوانِ... وأنْشَبَ فِيهِ مَخالِبَهُ، وهُوَ يَصْرخُ صُراخاً مُخِيفاً، ثُمَّ أخَذَ يَضْرِبُ عيْنَ خَصْمِهِ بِمِنْقَارِهِ الحادِّ.. حتَّى أسالَ مِنْها الدِّمَاءَ، فآنْدفَعَ الوَحْشُ هارِباً مِنْ أمَامِ الطائِرِ الَّذِي كانَتْ لَهُ الغَلَبَةُ عَلَيْهِ بَعْدَ مَعْرَكَةٍ هَائِلَة.

انتَهَتِ المَعْرَكَةُ.. وجَثَمَ الطَّائِرُ فَوْقَ هٰذِهِ القُبَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ إلاَّ بَيْضَةً. وأيْقَنْتُ لحْظَتَها أنَّ الخَطر يَتَهَدَّدُنِي أيْضاً مِنَ السَّماءِ..، فَهَذا الطَّائِرُ الكَبِيرُ كانَتْ لَهُ مَخالِبُ حادَّةٌ كأسْنَانِ الحَيوانَاتِ المفْتَرِسَةِ مِنَ السِّبَاعِ والضَّوارِي..، ويَسْتَطِيعُ أنْ يُمَزِّقَنِي ويَسْحَقَنِي بيْنَ مَخالِبِهِ كنَمْلةٍ فِي مِخْلَبِ صَقْرٍ!!!

أيُّ قَدَرٍ هٰذا الَّذي ألْقَى بِي إلَى هَذِهِ الجَزِيرَةِ، الَّتِي كلُّ مَا فيها عَمالِيقُ..، مِنْ حَيوانَاتِ مَا قبْلَ التَّارِيخ.

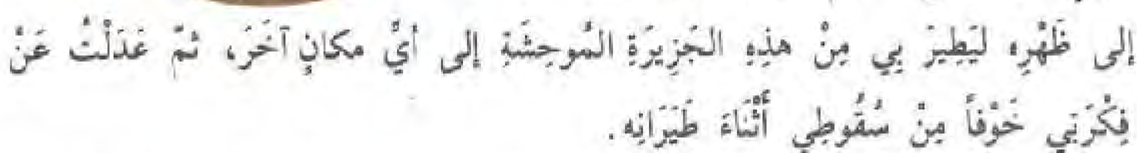
أعْجَزَنِي آلخَوْفُ فَلَمْ أعُدْ أقْوى عَلَى آلحَرَكَةِ، فَظَلَلْتُ فِي مَكَانِي أنْظُرُ إلى هٰذا الطَّائِرِ الضَّخْمِ وَقَدْ أغْمَضَ ونَامَ، وتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَ لِي جَنَاحَانِ مِثْلُهُ فأطِيرُ بِهِما بَعِيداً عَنْ هَذِهِ آلجَزِيرَةِ آلمَلْعُونَة...

ويَبْدُو أنَّ نَوْمَ الطَّائِرِ قَدْ ذَكَّرنِي بِسَهَرِي طُولَ اللَّيْلِ، فَثَقُلَتْ جُفُونِي وأحْسَسْتُ بِعَدَمِ القُدْرَةِ على مُغَالَبَةِ النَّوْمِ فَأرْخَيْتُ جَفْنَيَّ غَيْرَ عابِىءٍ بما يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ بَعْدَ ذَلك.

ورأيْتُ فِي مَنَامِي كأنَّنِي أمْتَطِي ظَهْرَ هَذا الطَّائِرِ الكَبِيرِ، وَهُوَ يَطِيرُ بِي مُحلِّقاً

فِي الفَضَاءِ، قاطِعاً المَسافَاتِ والأَبْعَادَ حتَى بلغْتُ «بغْداد».

وعُدْتُ إلى يَقْظَتِي، فَأَحْسَسْتُ بِـالنَّدَمِ، وتمَنَّيْتُ لَـوْ كـانَ الحُلْمُ حَقِيقَةً. . ، ونظرْتُ إلى الطائِرِ الّذي كانَ ما يَزال مُسْتغرقاً في نَـوْمِهِ، وحـدَّثْتُ نَفْسِي أَنْ أَجْعَلَ الحُلْم حَقِيقَةً فأصْعَدُ

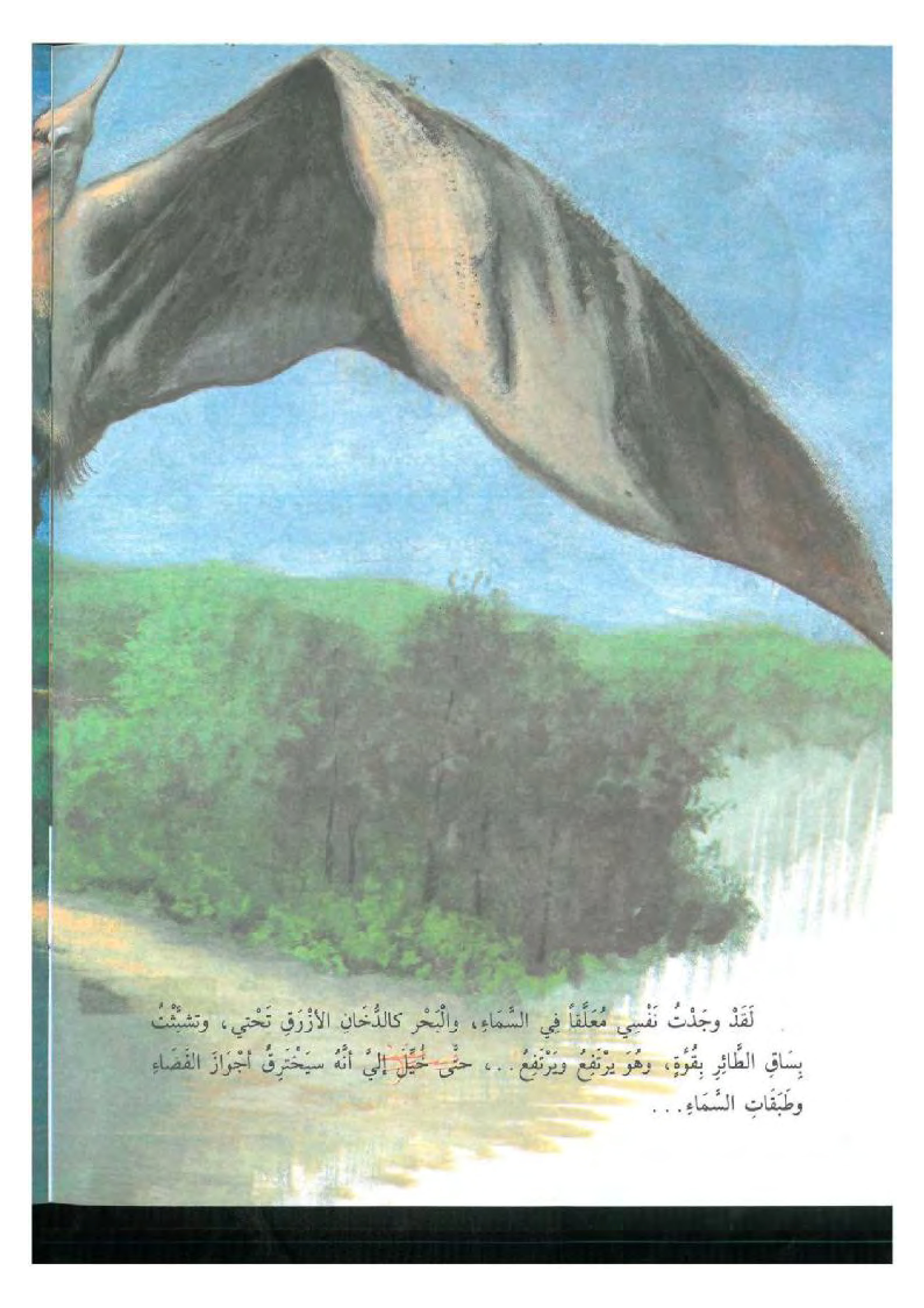


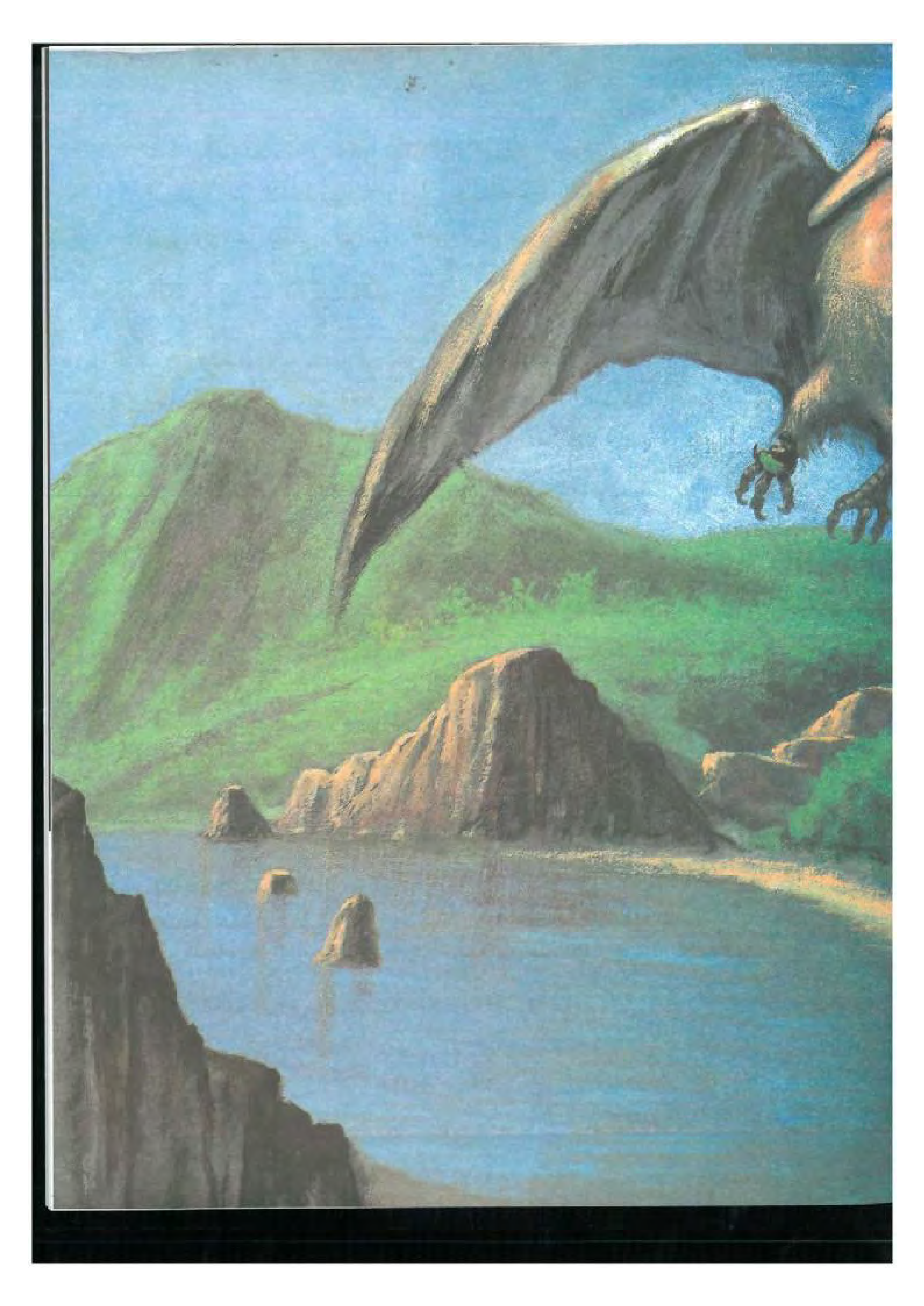
إلى ظَهْرِهِ لِيَطِيرَ بِي مِنْ هذِهِ الجَزِيرَةِ المُوحِشَةِ إلى أيِّ مكانٍ آخَرَ، ثمّ عَدَلْتُ عَنْ فِكْرَتِي خَوْفاً مِنْ سُقُوطِي أَثْنَاءَ طَيَرانِه.

ثم عُدْت فَقُلْتُ: «قَدْ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُوثِقَ نَفْسِي بِساقِهِ الطَّوِيلَةِ، ولكِنْ مِنْ أَيْنَ لِي بِحَبْلٍ أَرْبُطُهُ حَوْلي»؟

ثُمَّ تَذَكَّرتُ قُماشَ عِمامَتِي، إنَّهُ يَصْلُحُ لِهَذا الغَرَضِ. . . فَخَلَعْتُها عَنْ رأسْي، وفَكَكْتُها ثُمَّ فَتَلْتُها فَصارَتْ أَشْبَهَ بالحَبْلِ، وزَحَفْتُ بِخِفَّةٍ وتَسَلَّقْتُ إلى سَاقِ الطَّائِرِ، ثُمَّ احْتَضَنْتُها بِحَذَرٍ كَمَا يَحْتَضِنُ الإِنْسَانُ جِذْعَ شَجَرةٍ وشَدَدْت حَبْلَ العِمامَةِ حَوْلَ السَّاقِ وحَوْلِي وَحَمَدْتُ اللّهُ علىَ أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِي.

ومَضى وقْتٌ طَوِيلٌ حِينَ شَعَرْتُ بِهِ يُحَرِّكُ سَاقَهُ، فكأَنَّ الأَرْضَ تَرْتَجِفُ بِي، ثُمَّ انْتَفَضَ انْتِفَاضَةً عَظِيمَةً ارْتَجَتْ لَها الأرضُ وثَارَ الغُبارُ. . . وانْخَلَع لَها قَلْبِي، ثُمَّ انْطَلَقَ يَجْرِي عَلَى الأَرْضِ وأَنَا أَهْتَزُّ مَعَه بِشِدَّةٍ حَتّى خَرَجَ مِنْ فَمِي كُلُّ ما كَانَ فِي جَوْفي مِنْ طَعَام. . .، وبَعْدَها فَقَدْتُ وَعْيِي. . . أَوْ أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ، لا أَعْرِف. . ، كُلُّ ما أَعْرِفُهُ أَنِي حِينَ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ شهَقْتُ شَهْقَةً كَادَتْ تَذْهَبُ بِرُوحِي وأَنْفاسِي. .


لَقَدْ وجَدْتُ نَفْسِي مُعَلَّقاً في السَّمَاءِ، والْبَحْر كالدُّخانِ الأزْرَقِ تَحْتي، وتشبَّثْتُ بِسَاقِ الطَّائِرِ بِقُوَّةٍ، وهُوَ يرْتَفِعُ ويَرْتَفِعُ..، حتّى خُيِّلَ إليّ أنَّهُ سيَخْتَرِقُ أجْوازَ الفَضاءِ وطَبَقَاتِ السَّمَاءِ...



وكُلّما نَظرْتُ إلى أسْفل كُلّما ازْدادَ اضْطرابِي وَخوْفي، إلى أنْ رأيْتُ أرضاً لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أميّزَ الأشْياء فِيها. . .، ومِنْ عَجَبٍ أنّ الأرْض كانَتْ تتحرّك، فتارةً أجِدُها عنْ يَمِيني وتارةً عنْ شِمالي، ثُمّ اسْتَوتْ أخِيراً أسْفَلَ مِنّي، وأخذَتْ تقْتَرِبُ وتقْتَرِبُ. .، بيْنما يَضِيقُ نَفَسِي. . .

وشعرتُ بألَمٍ شديدٍ في أُذُني. .، ثُمّ تَوَضّحتْ لِي مَعالِمُ هٰذهِ الأرْض: كانَتْ جِبالاً ووِدْياناً. . . هَبطَ الطائرُ على أعْلىَ قِمّةٍ مِنْها، فأسرعْتُ أُخَلِّصُ نَفْسِي مِنْ مَكاني. . .: ورَمَيْتُ بِنَفْسِي قافِزاً إلى الأرْض، بيْنما انْطَلقَ الطّائِرُ مُرْتَفِعاً إلى أعْلى، مُحَلِّقاً في الجوْزاءِ. . .، فكَأنّ هُبوطَهُ إنّما كانَ مِنْ أجْلِي. . .

ثُمّ رأيْتُهُ يَهْوي إلى الوادِي القَرِيبِ، ثُمّ يرْتَفِعُ ثانِيَةً، وقَدْ أمْسَكَ بِمَخالِبِه بشَيْءٍ يَتَلوّى، فِي حَجْمِ شَجَرةٍ ضَخْمَةٍ. . . ودقّقْتُ النّظَرَ، إنّهُ ثُعْبانٌ هائِلٌ. . .!!

انْطَلَقَ بِهِ الطائرُ بَيْنَ صُراخٍ وعُواءٍ وفَحِيحٍ. . .، كَرِيحِ الشّتاءِ المُزَمْجِرَةِ، فتَمَلّكَتْنِي قُشَعْرِيرَةٌ. . .، وحمَدْتُ اللّهَ على أنّي تخلّصْتُ مِنْ ساقِ الطّائِرِ، وإلاّ فأنا الآنَ أُشارِكُ الثُّعْبانَ مَكانَهُ. . . ورُبّما مَصِيرَهُ.

اسْتَرحْتُ قليلاً في مَكانِي حيْثُ هَبطْتُ، أنْظُرُ حوْلي فَلاَ أرى إلاّ صُخُوراً وتِلالاً. . . جَرْداءَ قفْراءَ. . .، فترَكْتُ مَكاني وانْتَقلْتُ إلى مَكانٍ آخَرَ. وآخَرَ. فَلَمْ أُصادِفْ شَيْئاً. . . لا شَجَرَةً. . ولا نَباتاً. . ولا مَاءً. . .، ونَدِمْتُ أشدَّ النّدَمِ، ولَعَنْتُ

حَظِّيَ الذي أخْرَجَنِي مِنْ جَزِيرَةِ الأشْجارِ والثّمارِ إلى أرْضٍ بَلْقعٍ خَرِبَةٍ، فَكَأنّي خَرَجْتُ مِنَ النّعِيمِ إلى الجَحِيم.

ولَمْ أَجِدْ مَفَراً مِنْ تَرْكِ الجَبَلِ والهُبُوطِ إلى الوادي كَما فَعَلَ الطَّائرُ . . ، لَعَلِّي أُدرِكُ شيْئاً أقْتاتُ بِهِ ، أو ماءً أُطْفِئُ بِهِ غُلَّةَ ظَمَأي .

أَلْقَيْتُ نظْرَةً فوَجَدْتُ السُّحُبَ الَّتِي تَحْتَ الجَبَلِ تَحْجبُ الرُّؤْيَةَ عَمَّا فِي ٱلْوَادِي ، وأَنَّ النُّزُولَ إِلَيْهِ يَلزَمُهُ وَقْتٌ طَويلٌ ودونَهُ مَشقَّةٌ عُظْمَى ، وكانَ جَسَدي مُرْهقاً ، ورأْسِي مُتْعَباً . . ، فقرَّرْتُ قَضاءَ لَيْلَتِي فَوْقَ ٱلجَبَلِ ، ومَعَ ٱلنَّهارِ يَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاء .

لَاحَ نُورُ الصَّبَاحِ ، وأشْرَقَتْ شَمْسُهُ ، وصَحَوْتُ مِنْ نَوْمِي ، وتَرَكْتُ مَكاني ، وسِرْتُ حتَّى حافَّةِ الجَبَلِ ، ونَظَرْتُ مِنْه إلىَ أسْفَلَ . . ، فرأيْتُ سَفْحاً يَنْتَهِي إلى وادٍ سَحِيقٍ ، يَحُدُّه مِنَ النَّاحِيَةِ الثَّانِيَةِ جَبَلٌ آخَرُ تَكَادُ قِمَّتُهُ تَبْلُغُ السَّحابَ . . .

فَعَدَلْتُ عَنِ النُّزُولِ ، وعُدْتُ إلى السَّيْرِ أبْحَثُ عَنْ ثَمرَةٍ أو قَطْرَةِ ماءٍ فَلَمْ أجِدْ شيْئاً . . . ، وتَمَلَّكَتْني الحَيْرَةُ فِيمَ أفْعَلُ . . . ، أأَظَلُّ فَوْقَ الجَبَلِ لأَمُوتَ جُوعاً وعَطَشاً!؟ أمْ أنْحَدِرُ مِنْهُ إلى سَفْحِ ٱلوادِي الرَّحِيبِ الرَّهِيبِ . ؟؟

وأخِيراً لَمْ يَكُنْ أمَامِي إلاَّ أنْ أَنْتصِرَ عَلَى الْيأْسِ فأخَذْتُ طَرِيقِي إلى أسْفَلِ ٱلوادِي ، فَبَلَغْتُهُ بَعْدَ وقْتٍ طَوِيلٍ وصُعُوبَةٍ ومَشَقَّةٍ . . .

ونَظَرْتُ إلى الأرْضِ فإذا حِجارَتُها تَلْمَعُ تَحْتَ أشِعَّةِ ٱلشَّمْسِ وتُرْسِلُ وَهجاً وبَرِيقاً يَخْطَفُ الأبْصارَ . . ، تَناوَلْتُ بِيَدِي حَجَراً فإذا هُوَ مِنَ ٱلماسِ الخَالِصِ ، فَتَبَسَّمْتُ سَاخِراً . . . في أسىً . . . ، وقُلْتُ :

ـ هذا الماسُ كُلُّهُ أمامِي... وتحتَ قدَمَيَّ... لا يُساوِي كِسْرَةَ خُبْزٍ أَوْ شَرْبَةَ ماءٍ...

كانَ أَوْلى بِهَذِهِ الأَرْضِ أنْ تُخْرِجَ الحبَّ والنَّبات...

أيُّ نِهايةٍ هٰذِهِ؟

إنّي أكادُ أموتُ فوْقَ أرْضٍ يتقاتَلُ النّاسُ على حَفْنَةٍ مِنْ حَصاها الّذِي هُوَ مِنْ أعْظَمِ الزِّينَةِ، لكِنَّها فاقِدَةٌ لأبْسَطِ مُقَوِّماتِ الحَياة!!!!

وقفْتُ فِي مَكانِي أنْظُرُ إلى كُلِّ ما حَوْلي، لَعَلِّي أرى عُشْباً أو حتّى حَشَرَةً أسُدُّ بِها رَمَقِي، لَقَدْ غَلَبَنِي الجُوعُ وأجْهَدَنِي العَطَشُ وأتْعَبَنِي السَّيْرُ، ولَمْ أَعُدْ أقْدِرُ عَلَى الوُقُوفِ.

لَقَدْ تغَلَّبْتُ في مَا مَضَى على صِعابٍ كَثِيرَةٍ...، حتّى عِنْدما صارَعْتُ الأمْواجَ رَزَقَنِي اللّٰهُ مِنْ ثَمَرِ الشَّجَرَةِ الّتِي تَعَلَّقْتُ بِهَا...

أمّا فِي هٰذِهِ المَرَّةِ فَلا مَفَرَّ مِنَ المَوْتِ.. أبَداً.

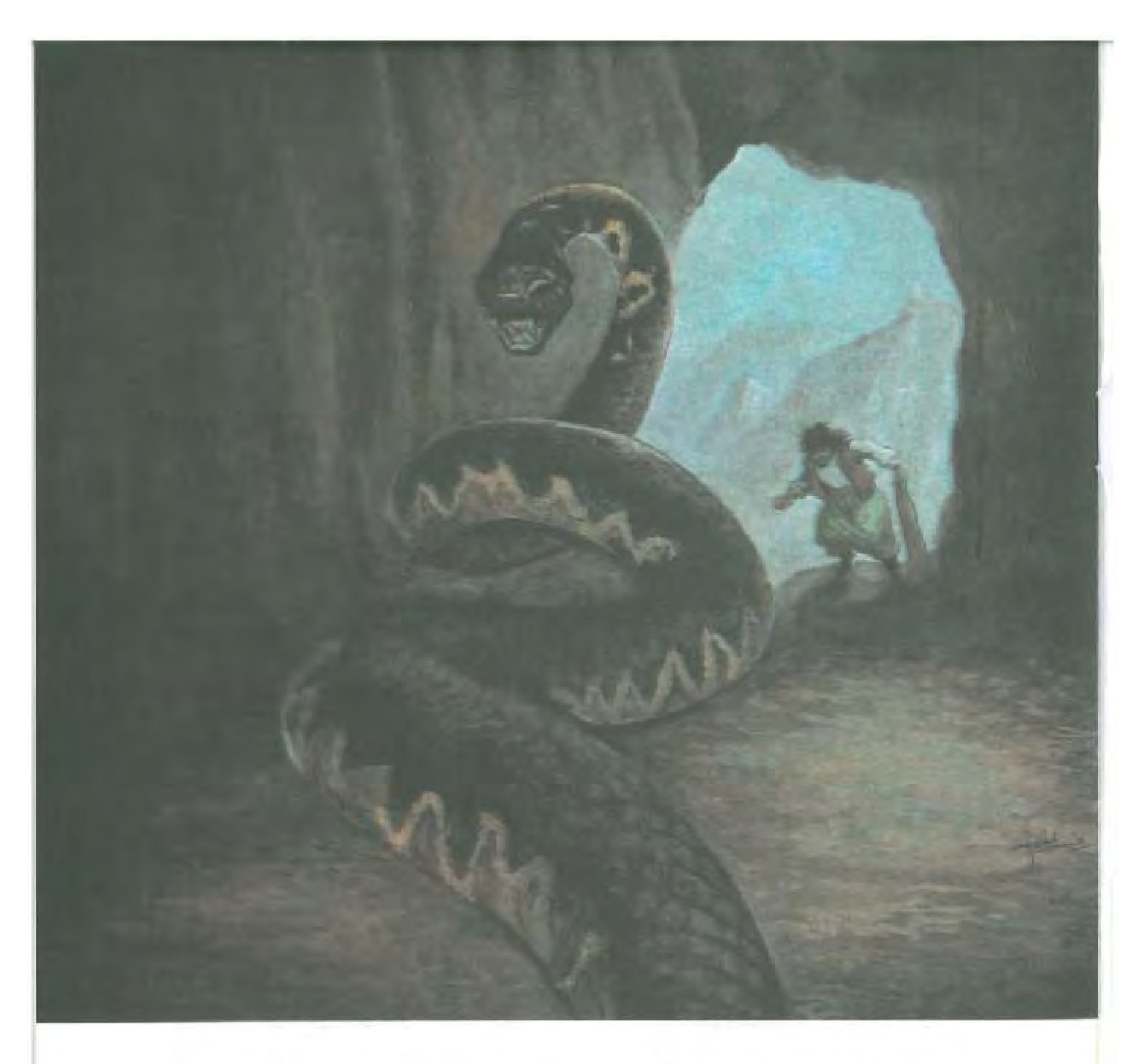
لمْ يَعُد أمَامِي إلاّ أنْ أحْفرَ قَبْرِي بِيَدِي..!

وتعلَّقْتُ بأمَلٍ ضَعيفٍ...، فقُلْتُ: «لَعَلِّي أجِدُ فِي الجَبَلِ المُقابِلِ شَيْئاً مِنْ طَعَامٍ أو شَرَابٍ..، وعَلَيَّ أنْ أواصِلَ السَّيْرَ...».

فَتَحامَلْتُ عَلَى نَفْسِي وسَعَيْتُ، ووَصلْتُهُ وأنا فِي غَايَةِ الإرْهَاقِ والتَّعبِ، فَمَا وجَدْتُ شيْئاً.. سِوَى فَجْوَةٍ في أسْفَلِهِ، وتَساءلْتُ عَمّا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ فِي داخِلِها...

وعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهِيَ إمّا أنْ تَكُونَ مَسْكَنِي ومَأْوايَ أوْ قَبْرِي...

دَخَلْتُ مِنَ الفَجْوَةِ لأجِدَ مَغارَةً مُظْلِمَةً، لا أكادُ أتبَيَّنُ فِيها يَدَيَّ، وتَحَسَّسْتُ رُكْناً أوَيْتُ إلَيْهِ، وجَلَسْتُ فِيهِ لأسْتَرِيحَ...



لمْ يَمْضِ إلا وقتٌ يَسِيرٌ حتَّى سمعْتُ فَحِيحاً يَنْبعِثُ مِنْ أحَدِ الأرْكَانِ، فأرْهَفْتُ سَمْعِي، وأمْعَنْتُ النَّظَرَ وكَانَتْ عَيْنَايَ قَدْ تعوَّدَتا الظَّلامَ ـ فَتَبيَّنْتُ حَيَّةً عَظِيمَةَ آلخِلْقَةِ، هَائِلَةَ الحَجْمِ . . تَزْحَفُ عَلَى الأرْضِ ، خَارِجَةً مِنْ فُتْحَةِ هَذِهِ المَغَارَةِ.

وقَدْ بَلَغَ مِنْ ضَخَامَتِها وطُولِهَا أنْ أصْبَحَ رأسُها خَارِجاً وبَقِيَّةُ جِسْمِها فِي دَاخِلِ المَغَارَةِ. . كأنَّها آلتِنِّينُ. . . ، وبَعْدَ خُرُوجِها إلى الوَادِي وَافَتْها حيَّةٌ أُخْرَى مِنْ نَاحِيةٍ

ثانِيَةٍ، ثُمّ ثالِثَةٌ ورابِعَةٌ وخامِسَةٌ . . . ، حَتّى خُيِّلَ إليَّ أنَّ الوادِي كُلَّه قَدِ امْتَلأ بِالأفاعِي والحَيّات . . .

وأطْلَلْتُ بِرأسِي مِنْ داخِلِ المَغارَةِ أرْقُبُهم، ولا آتي بِحَرَكَة . . . ، حتّى حلَّ الظَّلامُ، وتَعَذَّرَتِ الرُّؤْيَةُ، واحتَرْتُ ماذا أفْعَلُ، فَلَوْ تَرَكْتُ المَغارَةَ سَتَفْتِكُ بي خارِجَها . . ، ولَوْ بَقِيتُ فَإنّي كَمَنْ يَهْرُبُ مِنَ الأسَدِ إلى عَرِينِهِ، ولَمْ أجِدْ مَفَرّاً مِنْ بَقائي في مَكانِي، وانزوَيْتُ في رُكْنٍ مُسْتَسْلِماً للمَصِيرِ الَّذي يَنْتَظِرُني ويُرِيحُني مِمّا أنا فِيه.

مَضى الوَقْتُ ثَقِيلاً بَطِيئاً . . . ، وحاوَلْتُ أنْ أنامَ . . ولكِنْ هَيْهاتَ لِخائِفٍ أنْ يَنامَ، ومِنَ الغَرِيبِ أنّي نَسِيتُ الجُوعَ وكَذَلِكَ العَطَش . . .

وكانَ ضوءُ القَمَرِ قَدْ تَسَلَّلَ إلى فَتْحَةِ المَغارَةِ، ومَا كُنْتُ بِحاجَةٍ إلَيْهِ، فَقَدْ أصْبَحَتِ الرُّؤْيَةُ واضِحَةً تَماماً، ويُمْكِنُ للثُّعْبانِ حِينَ عَوْدَتِهِ أنْ يَراني حَتّى ولَوْ كانَ أعْمى . . .

ولكِنْ عادَ الضوءُ للاخْتِفاءِ بَعْد فَتْرةٍ مِنَ الوقْتِ لِيَعُمَّ الظَّلامُ الدامِسُ جَوْفَ المَغارَةِ . . .

ويَبْدُو أنّني قَدِ اسْتَسْلَمْتُ كُلّيّاً للقَدَرِ، إلى دَرَجةِ أنّي غَفَوْتُ إغْفاءَةً بَسيطةً، ثُمّ صَحَوْتُ لأجِدَ شُعاعاً مِنْ ضَوْءِ القَمَرِ قَدْ أضاءَ المَكانَ مَرّةً أُخْرى . . ، ولكِنْ هٰذِهِ المَرَّةَ يَأْتِي مِنْ عَكْسِ البابِ الَّذِي دخلْتُ مِنْه، مِنَ الجِهَةِ المقابِلَةِ . . ، إذاً . . . لِلْمَغارَةِ بابٌ آخَرُ.

كانَ ثُقْباً ضَيِّقاً بَعِيداً عنْ مَكانِي الَّذِي أقْبَعُ فِيهِ، فأسْرَعْتُ إلَيْهِ، بَعْدَ أنْ قَطَعْتُ ما يُشْبِهُ السِّرْدابَ الطَّوِيلَ، فَوَجَدْتُ فَجْوةً مِنْ بَيْنِ أحْجارٍ مَصْفُوفَةٍ، ورأيْتُ السَّماءَ مِنْ خِلالِها . . . يَتَوَسَّط كَبِدَها القَمَرُ . . ، فَدَفَعْتُ بَعْضَ الأحْجارِ، ونَفَذْتُ إلى الخارِجِ لأرى

ما لا تُصدِّقُهُ العينُ، ولا يَخْطُرُ على آلبال.

رَأيْتُ نَهْراً عَظِيماً، وعَلىٰ ضِفَّتيهِ الزَّرْعُ والأشْجَار..!!

فآنْدَفَعْتُ نَحو النَّهْرِ بقوَّةٍ... لا أدْرِي مِنْ أيْنَ جاءتْنِي، وبِنَشَاطٍ لا أعْلَم كيْفَ وَاتاني، وألقيْتُ بِنَفْسِي فِي أحْضَان مِيَاهِهِ، أشْرَبُ وأضْرِبُ الماءَ بِكلْتا يَدَيَّ...، وأنَا فِي فَرَحٍ وزهْوٍ... وحَرَكَاتٍ كأنّها حَرَكَاتُ مَنْ أُصِيبَ بِمَسٍّ أو هِسْتِيرْيا...

خَرَجْتُ إلى الشَّاطِىءِ، وخَلَعْتُ مَلابِسِي المُبْتلّة وعَصَرْتُها.. ونَشَرْتُها فَوْق غُصْنِ شَجَرةٍ، وعُدْتُ إلى النَّهْرِ أسْبَحُ جِيئةً وذَهَاباً، ولمّا أحْسَسْتُ بِالتَّعَبِ خَرَجْتُ مِنَ آلمَاء...

وقصَدْتُ شُجَيْرةَ عِنَبٍ تَتَدلّى عناقيدُها كأنّها آلثُرَيَّات المُعلّقةُ المُضِيئةُ، فأكَلْتُ كَثِيراً حتّى آرْتويْتُ، غَلَبَنِي النوْمُ فاسْتَلْقيْتُ فَوْقَ العُشْبِ الأخْضَرِ...

وَآسْتيْقَظْتُ عَلَى صَوْتِ أُنَاسٍ يَتَحَدَّثُونَ...

كانُوا مَجْمُوعةً مِنَ الرِّجَالِ، تَبْدُو على وجُوهِهِم الوَدَاعَةُ والطِّيبَةُ...، ينظرُونَ إليَّ شَزْراً..، ففطِنْتُ إلى عُرْيِي...، فأسْرَعْتُ وآرْتَديْتُ مَلابِسِي..، ثمَّ أقبلْتُ عليْهِمْ وسَألْتُهُمْ إذا كانُوا يتكلّمُونَ العَرَبِيَّةَ مِثْلِي...



فأجَابَنِي أحدُهُمْ قائلاً:

«نعم...، بل نَحْنُ مِنَ العَرَبِ، ولكنْ مِنْ أيْنَ أنْتَ؟ ومَنْ تَكُونُ؟»؟

فأخْبَرْتُهُم، وحكيْتُ لَهُمْ طَرَفاً مِنْ قِصّتِي الطَّوِيلَةِ.

قالَ الرجُلُ: «مهْمَا يكُنْ مِنْ أمْرِكَ



فمرْحَباً بِكَ عِنْدَنا، وأَنْتَ ضيْفي، فَتَفَضَّلْ مَعِي إلى بَيْتِي،،، على الرَّحْبِ والسَّعَةِ..»

فشَكَرْتُ الرجُل وسِرْتُ بِجِوَارِه، والباقُونَ مِنْ حَوْلِنا حتَّى وصَلْنا إلى دارِه، فَاسْتَقْبَلَنا جمْعٌ آخَرُ مِنْ أهْلِ الدَّارِ، وقالَ لي الرَّجُلُ مُشيراً إلَيْهِمْ: هؤلاءِ أبنائي وأحْفادي...

فسلَّمتُ عَلَيْهِمْ، ورحَّبُوا جَمِيعاً بوُجُودِي، وجَلَسْتُ بَيْنَهُمْ، وحَضَرَ الطَّعَامُ، فأكَلْنَا وحَمَدْنا اللّهَ.

وقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ حِكَايَتِي كُلَّها، مِنْ أَلِفِها إلى يائِها...

قالَ الرجلُ: «حمْداً لِله على سَلامَتِكَ، وأهْلاً بكَ في بلْدَتِنا»..، ثم أضافَ: «إعلَم - يا بُنيَّ - أنَّنا قَوْمٌ نَعْمَلُ جميعاً بالزراعَةِ، نَتَعاطَى مَعَ الأرْضِ، لَدَيْنَا نهر عظيمٌ يَجْرِي فَيَسْقي حُقُولَنا وزَرْعَنا، هُوَ الَّذِي شرِبْتَ مِنْهُ وسَبَحْتَ فِيهِ آنِفاً، وأرْضُنا خِصْبَةٌ تُعْطِي عَطاءً واسِعاً وغِلالاً وَفِيرَةً...، ونَعيشُ حياةً هادِئَةً يُعاوِنُ بعضُنا بعْضاً، نَتَقَاسَمُ حُلْوَ الحَياةِ ومُرَّها...

فإنْ أحبَبْتَ أنْ تَكُونَ لكَ أرضٌ تَزْرَعها فَلَكَ مِنَ الأرْضِ ما شِئْتَ، وإنْ أحبَبْتَ أنْ تَعْمَلَ مَعَنا فَلَكَ مِنّا الأجْرُ والشُّكْرُ..، وإنْ أحبَبْتَ أنْ تكونَ ضَيْفاً فَلَكَ مِنّا كُلُّ تَرْحِيب...

فقُلْتُ للرَّجُلِ: «إنّني يا سَيِّدي أسيرُ كَرَمِكُمْ وعَطْفِكُمْ..، وأنا رجُلٌ تاجِرٌ لا عِلْمَ لي ولا خِبْرَةَ بالزِّرَاعَةِ، فدعُونِي أعْمَلُ معَكُمْ كَواحِدٍ مِنْكُمْ، وأعاوِنُكُمْ فِيما أقْدِرُ عَلَيْه»..

فَقَالَ الرجُلُ: «جَزاكَ اللّهُ كُلَّ خَيْرٍ.. وأهلاً بِكَ في دارِي كَواحِدٍ مِنْ أبْنائِي».

مضَتْ شهُورٌ عَدِيدَةٌ على هذِهِ الحَياةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي ما تعوَّدْتُها. . . ، ففِي فجْرِ كُلِّ يَوْمٍ أستيقظُ في الصَّباحِ البَاكِرِ مَعَ أبْنَاءِ الرَّجُلِ ونَخْرُجُ جَمِيعاً إلى الحَقْلِ وأشارِكُهُمْ عَمَلَهُم حتَّى تعلَّمْتُ أصُولَ الزِّرَاعَةِ، وعرفْتُ كُلَّ شيْءٍ عَنْها. . . وصِرْتُ معروفاً منْ كلِّ أبناءِ البلدَةِ، ولمْ أعُدْ غَريباً عنْ أهْلِها. .

وذاتَ مساءٍ، وأنا متمدِّدٌ على فِراشي، يُداعِبُ النُّعاس أجْفاني، هَجَمَتْ عليَّ ذكرياتُ الْمَاضِي كلِّهِ، دُفعةً واحِدَةً، واستَعَدْتُ شَريطَ حَياتي أمامَ عَيْنيَّ، كيْفَ كنْتُ؟ وأينَ أصبحْتُ؟ وتَمَثَّلتْ لِي «بغداد» بأُبَّهَتِها وفَخَامَتِها، وحَيَاتي المُتْرَفَة هُنَاك. . ومتْجَري. . . وقَصْرِي. . . وأمْوالي. . . ، وهاجَ بِيَ الحَنِينُ إلى كُلِّ ذلك. . .

وفي الصباحِ استيقظْتُ على حالٍ سَيِّءٍ مُتَبَرِّماً بِنَفْسِي وبالنَّاسِ. . ، لا أجِدُ رغْبَةً في العَمل. . ، فتركْتُ الدارَ وخرجْتُ أسِيرُ وحْدِي. . . وقدْ صَمَّمتُ عَلَى أمْر.

مضيْتُ في السَّيْرِ حتَّى أشرفْتُ على الجَبَلِ الَّذِي خَرَجْتُ مِنه إلى هذِه البَلْدَةِ، ورأيْتُ الفَجْوَةَ وقَدْ أُعِيدَ غَلْقُها بالحِجارَةِ الضَّخْمَةِ. . . فَعَجِبْتُ لِذَلِكَ، وَتَساءَلْتُ: لِمَاذا أُغْلِقَتْ؟ ومَنِ الَّذِي سَدَّها؟

وفَكَّرْتُ أنْ أفْتَحَها ثَانِيةً. . . لكنَّنِي عَدَلْتُ عنْ ذَلِكَ، وعُدْتُ من حَيْث أتيتُ، وتَوَجَّهتُ إلى الحَقْلِ، فوجَدْتُ الجَمِيع هُنَاك. . . يَحْرثُونَ ويَبْذُرُونَ. . . ، ورأيتُ أباهُمْ جالساً وحْدَهُ فِي ظِلِّ شَجَرَة. . . ، فأتيْتُهُ وجلسْتُ مَعه. . . ، كانَ يَنْظرُ إليّ وكأنَّ عينيْهِ تَنْفُذَانِ إلى داخِلِ نَفْسِي وَتَطَّلِعُ عَلى أفْكَارِي وما يَجُولُ في صَدْرِي. . . ، ثُمَّ قَالَ:

- ماذا بِكَ يا بُنيَّ اليوْمَ؟ ولِمَاذا لَمْ تَنْتَظِرْ إخْوتَكَ فِي الصَّباحِ لِتَخْرُجُوا إلى العَمَلِ مَعاً؟

قُلْتُ: «وَاللّهِ يا عَمّاهُ... لَقَدْ مللْتُ هذِهِ الحَيَاةَ الَّتِي لَمْ أتَعَوَّدْها...، وإنِّي لا أُنْكِرُ فَضْلَكَ وكَرَمَكَ معي، ولِذَلِكَ فإنِّي أَوَدُّ أنْ أخْبِرَكَ بِشَيْءٍ نَسِيتُهُ مِنْ حِكَايَتِي حِينَ أَتَيْتُ إليْكُمْ»...

قالَ: «ما هُوَ»؟

قُلْتُ: «إنَّ في هَذَا الجبَلِ فَجْوَةً تُؤَدِّي إلى مَغَارَةٍ لَها مَدْخَلٌ آخَرُ، يُوصِلُ إلى أرْضٍ حِجَارَتُها كُلُّها مِنَ المَاسِ...، تَسْتَطِيعُونَ أنْ تُحْضِرُوا مِنْ هُنَاكَ ما يُغْنِيكُمْ عَنْ عَناءِ العَيْشِ وكَدِّ العَمَلِ...، فكُلُّ حَجَرٍ يُسَاوِي ثَرْوةً...، وإنِّي قَدْ عزَمْتُ علَى الذَّهَابِ إلى هُنَاكَ لآخُذَ ما يُعِينُنِي عَلَى السَّفَرِ إلى بَلَدِي...».

فَقَالَ الرَّجُلُ: «إسْمَعْ يا بُنَيّ... لَقَدْ قَضَيْتُ عُمْرِي كُلَّهُ في هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي أمَامَكَ، فهِيَ أَرْضُ آبَائِي وأجْدادِي مِنْ قَبْلُ، وغَداً تَكُونُ لأَبْنائِي وأحْفَادِي مِنْ بَعْدِي، مِنْها نَعِيشُ وبِهَا نَسْتَغْنِي وَهِيَ الَّتِي تَهَبُنا الحَيَاةَ، والحَيَاةُ تُرابٌ وماءٌ يُنبتانِ الزَّرْعَ...، هذِهِ الأَرْضُ هِيَ الكَنْزُ الحَقِيقِيُّ...، أمّا ما عَدا ذَلِكَ فَلا قِيمَةَ لَهُ».

واعْلَمْ أَنَّنِي قَدْ عرفْتُ بِوُجُودِ المَاسِ الذي تحدَّثْتَنِي عَنه، ولَقَدْ وصَّانِي أبِي كَمَا وصَّاهُ جَدِّي أن لا أُخْبِرَ أحَداً بِأَمْرِهَا...، وقد حَمِدْتُ اللّهَ تعالى حينَ لَمْ تَأْتِ على ذِكْرِها فِي حِكَايَتِكَ أمَامَ المَلأ...، وأنا الذي أغْلَقْتُ فَجْوَةَ الجَبَلِ بِالصُّخُورِ والأحْجَار، حتَّى لا يَرَاهَا أحَدٌ...

فَقُلْتُ لَهُ: «ولَكِنْ لِماذا تفْعَلُ هذا وتَمْنَعُ الخَيْرَ عَنْكَ وعَنْ بَنِيكَ وأَهْلِ البَلْدَةِ»؟
فقالَ: «أيُّ خَيْرٍ تتحدَّثُ عَنه؟ إنَّهُ الشَّرُّ بعيْنِهِ!!! فلوْ عرَفَ النَّاسُ بِالمَاسِ، وأَصْبَحُوا كُلّهُمْ مِنَ الأثْرِيَاءِ فَمَنْ يَزْرَعُ الأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ سَتَمُوتُ الأرضُ ويَمُوتُ الجَمِيعُ أيْضاً...

فَتبصَّرْ يا بُنيَّ واصْرِفْ عقْلَكَ وذِهْنَكَ عَنْ هَذَا التَّفْكِيرِ . . . ، وإذا كانَ العَمَل يُضْنِيكَ فيُمْكِنُكَ أنْ تَسْتَرِيحَ ، أمّا إذا كَانَ مَقَامُكَ بَيْنَنا لا يَطِيبُ لَكَ وتُرِيدُ الرَّحِيلَ . فأنْتَ حُرٌّ ، ولَدَيَّ مِنَ المَالِ ما يُعِينُكَ على سَفَرِكَ» .

تَأثَّرْتُ بِكَلامِ الرَّجُلِ ، وخَجِلْتُ مِنْ نَفْسِي ، واعتذَرْتُ لهُ عَنْ سُوءِ تَفْكِيرِي وقِصَرِ نَظَرِي .

ثُمَّ قُمْتُ إلى العَمَلِ ، وانْضَمَمْتُ إلى بَقِيَّةِ الرِّجَالِ .

وفي المَسَاءِ ، وبَيْنما أسْتَعِدُّ للنَّومِ دَخَل عليَّ ابْنُهُ البِكْرُ ، وكانَ قريباً إلى قَلْبِي ونَفسِي بحُكْمِ عُمْرِهِ الذي يُقارِبُ عُمْرِي ، وهَمَس في أُذُني بأنَّهُ سَمِعَ حَدِيثِي مَعَ والِدِهِ ، وبأنَّهُ يَرْغَبُ فِي الذهابِ إلى أرْضِ المَاسِ . . .

فقلْتُ لهُ : «لَيْسَ الأمْرُ بِهَذِهِ السُّهُولَةِ ، والخَطَرُ هُنَاك جَسِيمٌ ، ويكفي أنَّنا سَنَمُرُّ فِي مَغَارَةٍ مُخيفةٍ مُظْلِمَةٍ هِيَ بَيْتُ الثُّعْبَانِ» . . .

قُلْتُ ذَلِكَ لِأصْرِفَهُ عن بُغْيَتِهِ . . .

فَقَال : «لسْتُ أخْشَى شَيْئاً في سَبيلِ الوُصُولِ إلى هَذِهِ الثَّرْوَةِ» . . .

قُلْتُ : «إنَّ والدَكَ لنْ يَرْضى عَنْ فَعْلَتِكَ ، وسيغْضَبُ كثيراً» . . .

فأجَابَنِي بأنَّ وَالِدَهُ حُرٌّ فِيما يَخْتَارُ مِنْ نَمَطِ العَيْشِ وأُسْلُوبِ الحَيَاةِ ، وكَذَلِكَ هُوَ ، وسَيُحَاوِلُ أنْ يُخْفِيَ ذَلِكَ عَنْهُ .

وافَقَ حَدِيثُهُ مَا فِي نَفْسِي مِنَ الهَوَى والمَيْلِ ، رغْمَ إظْهَارِي المُعَارَضَةَ ، فَطَلَبْتُ إلَيْهِ أنْ يَكْتُمَ الحَدِيثَ ويُمْهِلَنِي إلى الغَدِ ، كَيْ أُفَكِّرَ وأَدْرُسَ .

وجَاءَني فِي اليَوْمِ التَّالِي ، وَهُوَ أكْثَرُ عَزِيمَةً وأشَدُّ تَصْمِيماً ، فاتَّفَقْنا عَلى أنْ نَلْتَقِيَ فِي المَسَاءِ . . .

ومَعَ عَتَمَةِ اللَّيْلِ تَسَلَّلْنا مِنَ الدّارِ بَعْدَ أَنْ نامَ الجَميعُ، وآنْطَلَقْنا إلىَ آلجَبَلِ. كانَتِ اللَّيْلَةُ شَديدَةَ الظُّلْمَةِ فَبَدَتْ لَنا الأشْجارُ كَأَنَّها الأَشْباحُ مِنْ حوْلنا...، فلمّا وصَلْنا تلمَّسْتُ طَريقي إلى الأحْجارِ والصُّخُورِ التي تَسُدُّ الفجْوَة... وهُوَ يَتْبَعُني...، ويكادُ يلْتصِقُ بي مِنْ شِدَّةِ آلخَوْف...

وبَدَأْنا نُزيحُ الحِجارَةَ مِنْ مَكانِها حتّى بَدا لَنا مَكانُ الفَجْوَةِ فَكانَتْ أَشَدَّ ظلاماً مِنَ اللَّيْل...

وخَطَرَ لي أَنْ يَكُونَ الثعبانُ ما زالَ بالدّاخِلِ، فَيرانا... فَيلْتَهِمنا...، فأخَذْتُ بعْضَ الأحْجارِ وجعلْتُ أَقْذِفُ بها في كُلِّ آتجّاهٍ.. ورَفيقي يَسْأَلُني عَمّا أفْعَلُ، فأجَبْتُه بأنَّ الحَجَر حِينَ يَسْقُطُ علىَ الأَرْضِ الصلْبَةِ يُحْدِثُ صَوْتاً، أمّا إذا سَقَطَ على جِسْمِ الثُّعْبانِ فَلا يُسْمَعُ لهُ صَوْت...

وعاوَدْتُ إلْقاءَ الحِجارَةِ في كلِّ مَكـانٍ حتّى تأكَّدْتُ مِنْ خُلُوِّ المَغارَةِ، فدَخَلْتُ وأنا أمْسِكُ بيَدِ زَميلي البارِدَة... المُرْتَجِفَة...، ومَرَرْنا بالدِّهْليزِ الطَّويلِ حتّى وَصَلْنا إلى فُتْحَةِ المَغارَةِ مِنْ ناحِيَةِ وادي آلماسِ...

كانَتِ الأحْجارُ في الأرْضِ تُضيءُ وكَأَنَّها النُّجومُ في السَّماء...، أخْرَجَ كُلُّ مِنّا كِيسَهُ وَمَلأَهُ بأحْجارِ آلماسِ...، ثُمَّ رَفَعْناهما علَى ظَهْرِنا وعُدْنا مِنْ حيْثُ أَتَيْنا...

وفُوجِئْنا بالثُّعْبانِ قَدْ دَخَلَ المَغارَةَ، يَتَرَبَّصُ بِنا... فوقَفْنا جامِدَيْنِ لا نَدْري ماذا نَفْعَلُ، وكَيْفَ نَتَصَرَّف...

ونَظَرْتُ إلى زَميلي فَوَجَدْتُه لا يَقْوى على الوُقُوفِ، ويَكادُ يَسْقُطُ أرْضاً مِنَ الإعْياءِ ومِنَ الخَوْف، إذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَأى مِنْ قَبْلُ ثعْباناً بهذا الحَجْم...

فَطلبْتُ إِلَيْهِ أنْ يَتَماسَكَ ويهْدأ ولا يَأْتِيَ بِحَرَكَةٍ، حتّى نعثُرَ على مكانٍ أمِينٍ نتوارَى فِيهِ حتّى الصَّباح . . .

لَكِنَّهُ كانَ في حَالَةٍ مِنَ الذُّعْر أفْقَدَتْه القُدْرَةَ عَلى الحَرَكَةِ، فلَبِثْنا فِي مَكانِنا، ووَضَعْنا أحْمالَنا عَنْ ظُهُورِنا أمامَنا، وجَعَلْنا مِنْها سِتْراً نَخْتَفِي خَلْفَهُ.

ولمّا أقْبَلَ الصَّباحُ وتَسرَّبَ بَعْضُ الضَّوْءِ إلى المَغارَةِ سَأَلَنِي زَمِيلِي مَتى نَرْحَلُ؟ فَقُلْتُ بِأنَّهُ لا سَبِيلَ إِلى الخُرُوجِ حتّى نأْمَنَ شَرَّ الثُّعْبانِ بخُرُوجِهِ مِنَ المَغارة . . .

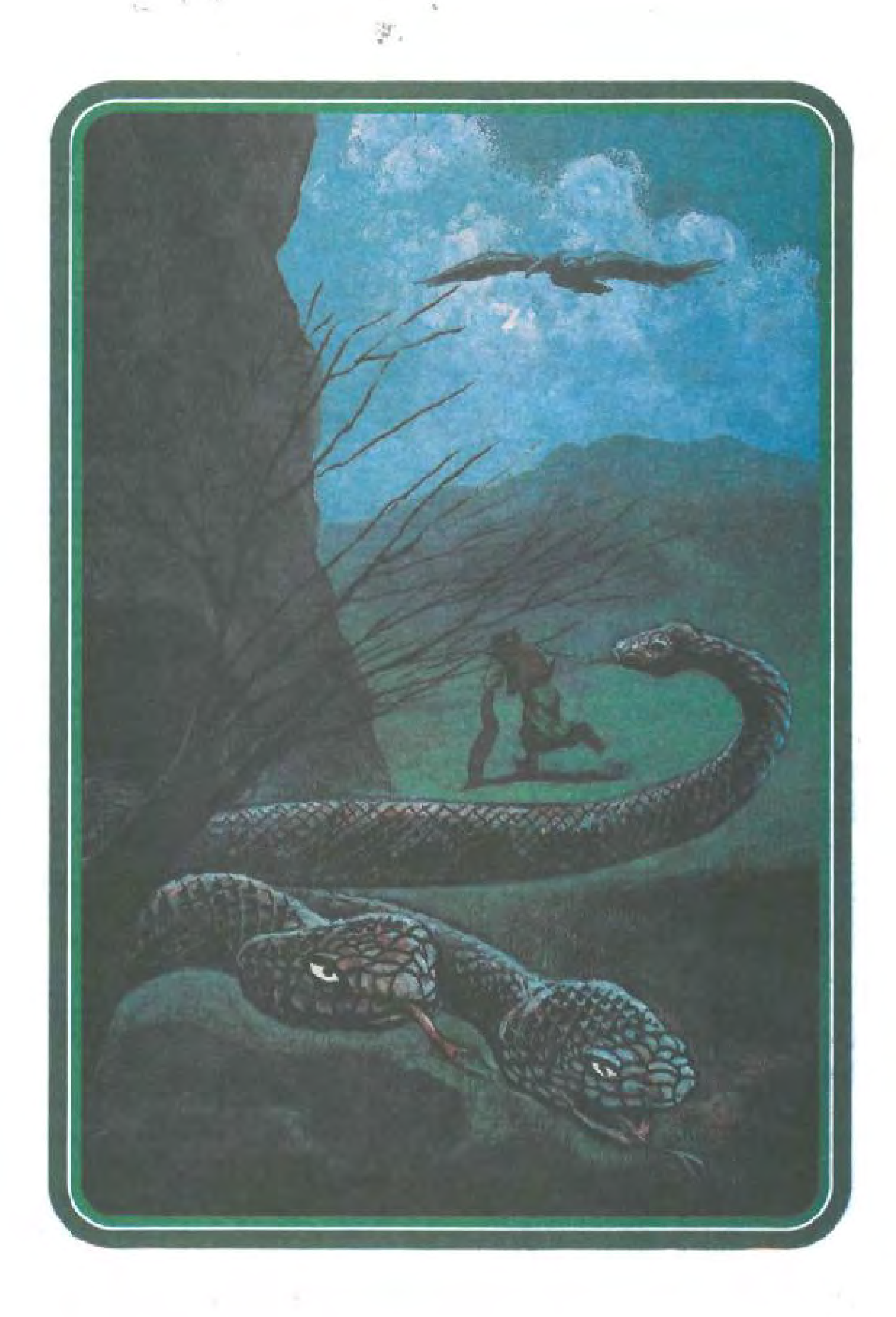
فَراحَ يلْعنُ نَفْسَهُ ويلُومُ طَيْشَهُ ويَقُول: «يا لَيْتَنِي مَا فَكَّرْتُ بهذا الأمْرِ» . . .
وتَركْتُهُ يَنْدُبُ حَظَّه، وأغْمَضْتُ عيْنَيَّ لِأنالَ قِسْطاً مِنَ النَّوْم . . .

لكنّهُ أيْقَظَنِي بِضَرباتٍ مُتَلاحِقَةٍ منْ يَدِهِ على جِسْمي، فَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ، فرأَيْتُهُ يُشيرُ إلى الثُّعْبانِ المتَّجِهِ إلَيْنا وقَدْ كَشَّرَ عَنْ نابَيْه ولَمْ يَعُدْ لنا مِنْهُ مَهْرَب . . . وعيناهُ تقدَحان بالشَّرَرِ كأنَّهُما جَمْرَتانِ مُلْتَهِبَتان . . . وفَحِيحُهُ يلْفَحُ وجهنا بِسُخُونَتِهِ . . .

وفَجْأةً سَمِعْنا صَوْتاً مِنَ الخَارِجِ كَأنَّهُ الصّاعِقَةُ، ورَأيْنا الثُّعْبانَ يَخْتَفِي مِنْ أمامِ أعْيُنِنا . . . ، وأطْلَلْتُ بِرأْسِي مِنَ الثغْرَةِ، فَإذا الثُّعْبانُ مُعلَّقٌ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، قَدِ آخْتَطَفَهُ الطّائِرُ الوَحْشُ بِمَخالِبِه . . .

لكنَّ الثعْبانَ تَخلَّصَ . . . ، وسَقَط أرْضاً . . . ، وانْتَصَبَ فِي وَجْهِ الطائِرِ يدَافِعُ عنْ نَفْسِهِ، وحَدَثَتْ بَيْنَهُما مَعْرَكَةٌ رَهِيبَةٌ هَائِلَةٌ . . . ، تَغَلَّبَ فِيها الطّائِرُ عَلى عَدُوِّهِ الثُّعبانِ، بِضَربَاتٍ مُتَلاحِقَةٍ منْ مَخالِبِهِ ومنْقارِهِ، وأخيراً حَمَلَهُ ومَضَى بِهِ بَعِيداً . . .

فِي أثْناءِ ذَلِكَ كانَ زَمِيلِي فِي غَشْيَةٍ مِنَ الهَلَعِ والفَزَعِ، لا يَدْرِي ما يَحْدُث، ولَقَدْ



مَرّ في ذِهْنِي ونفْسي أنَّني مَدِينٌ لهذا الطائِرِ بنَجاتي مِنَ المَوْتِ مرَّتين، مرَّةً حِينَ تعلَّقتُ بساقِهِ، وهٰذِهِ المَرَّةَ.

وعُدْتُ إلى المِسْكِين زَميلي أهُزُّه حتَّى آسْتَفَاق، وطمْأنْتُهُ على سلامَتِنا مِنَ الثُّعبان ونَجاتِنا مِنْ خَطَرِه...

ورَفَعْنا فَوْقَ ظَهْرَيْنا أحْمالَنا وخَرَجْنا مُسْرِعِين..، بآتِّجاهِ البَلْدَة، فلَمّا دخَلْنا الدَّارَ عَلى حِينِ غَفْلةٍ مِنْ أهْلِها النِّيَامِ، كانَ الشَّيْخُ الوالِدُ بانْتِظَارِنا.

فلما رَآنا، وَرأى ما نَحْمِلُه تَجَهَّمَ وعَبَسَ، وبَدَتْ عَلى وَجْهِهِ مَلامِحُ الغَضَبِ والثَّوْرَةِ، ثُمَّ وَجَّهَ كَلامَهُ إليَّ قائلاً:

ـ أيُّها الضَّيْفُ.. لَمْ يَعُدْ لَكَ مَقامٌ بَيْنَنا، خُذْ كُلَّ ما أحْضَرْتَهُ مَعَك، وآرْحَلْ عَنّا...

حَاوَلْتُ أنْ أتكلَّمَ، وأنْ أتْرُكَ لهُ نَصِيبَ وَلَدِهِ مِنَ آلمَاسِ...، فَلَمْ يَسْمَحْ لِي، وقال:

ـ لَسْنا بحاجَةٍ إلَيْهِ... يَكْفِينا تُرابُنا الَّذِي يُعْطِينا الزَّرْعَ والثَّمَرَ...، أمَّا أنْتَ فلاَ تعْرِفُ قِيمَةَ هَذا التُّرابِ، ولَمْ تُخْلَقْ لِمِثْلِ هذا العَمَلِ...، جَهِّزْ نَفْسَكَ، وسَأُعْطِيكَ بَغْلاً تَرْكَبُهُ حَتّى المَدِينَةِ ـ آلعَاصِمةِ ـ، ومِنْ هُناكَ تَسْتَطِيعُ أنْ تُسَافِرَ مَعَ التجّارِ الَّذِين يأتُونَها بحْراً مِنْ كُلِّ بِلادِ الدُّنْيا.

وعُدْتُ أطْلُبُ مِنَ الرَّجُلِ أنْ يَأْخذَ مِنْ هٰذِهِ الأحْجارِ... ولوْ قليلاً... حتّى يستَعِينَ بِثَمَنِها علىَ مَطَالِبِ الحَيَاةِ ومؤوُنَةِ العَيْش.

فَقَالَ: «قُلْتُ لكَ إنَّنا لا حاجَةَ بِنا إلىَ أحْجَارِك...، إنَّها قَدْ تُغْنِيكَ وتزِيدُ مِنْ ثَرْوَتِكَ فِي بَلَدِكَ، أمّا نَحْنُ فأغْنِياءُ بِقَناعَتِنا وعَمَلِنا، وهٰذا هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ بِلَادِنَا وبِلَادِكُمْ...

هُنَا الكُلّ يَعْمَل ويَأْكُل، وعِنْدَكُمْ هُنَاكَ مَنْ يَعْمَلُ وغَيْرُهُ يَأْخُذُ، لِذا ظَهَرَ بَيْنَكُم الغَنِيُّ والفَقِيرُ، والطامِعُ والذَّلِيلُ، والعَظِيمُ والحَقِيرُ...، أَعْمَاكُمُ المالُ عَنِ الأَعْمالِ، فَهانَتْ عِنْدَكُمُ الرَّذِيلَةُ وضاعَتْ مِنْكُمُ الفَضِيلَةُ...

وظَهَر كَبِيرُكُمْ أَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى صَغِيرِكُمْ حَتَّى كادَ الصَّغِيرُ أَنْ يَسْجُدَ لِلْكَبِيرِ، نَاسِياً خالِقَهُ العَظِيمَ.

لَمْ أَجِدْ ما أَقُولُهُ لِهَذا الشيْخِ الَّذِي كانَتْ كَلِمَاتُهُ تَنْطِقُ بالحَقِّ والحِكْمَةِ، فاكْتَفَيْتُ بالصَّمْتِ، وودَّعتُ الجَمِيعَ، وغَادَرْتُ الدَّارَ والبَلْدَةَ.

وَصَلْتُ إلى المَدِينَةِ عَلَى الشَّاطِىءِ، بَعْدَ سَفَرِ يَوْمَيْنِ، وسَاقَ اللهُ لي بعْضاً مِنَ التُّجَّارِ كَانَتْ وِجْهَةُ مَرْكَبِهِمْ مَدِينَةَ «البصْرة»، فَرَكِبْتُ مَعَهُم، وطَابَتْ لَنا الرِّيحُ، حَتَّى وَصَلْنا بِسَلامَةِ اللهِ.

ومِنَ «البصرة» إلى «بغداد»... مَعَ قافِلَةٍ كَبِيرَةٍ، بَلَغْتُها بَعْدَ سَبْعةِ أَيَّام، واتَّجَهْتُ إلى قَصْري، ومَا إنْ شَعَرَ النَّاسُ بِعَوْدَتِي حَتَّى أَقْبَلُوا مُهَلِّلِينَ فَرِحِينَ مُهَنِّئِينَ؛ فأَعْطَيْتُ الكَثِيرَ مِنَ العَطايا، ووَهَبْتُ الكَثِيرَ مِنَ الهَدايا... وحَمِدْتُ اللهَ على عَوْدَتي، وفي اليَوْمِ التَّالِي تَوَجَّهْتُ إلى مَتْجَري فَوَجَدْتُهُ مُزْدَهِرَ المَالِ وَافِرَ الأَرْباحِ، واسْتَقْبَلَنِي أَصْحَابِي التُّجَّارُ لِيَسْمَعُوا مِنِّي حِكَايَتِي عَنْ رِحْلَتِي وَغَيْبَتِي عَنْهُمْ طَوالَ عامَيْنِ.

وعِشْتُ بَعْدَ ذَلِك أَيَّاماً سَعِيدَةً هَادِئَةً، وَقَدْ آلَيْتُ على نَفْسِي أنْ لا أُسَافِرَ أَبَداً...

أسئلة حول الرحلة الثانية

١	عَلامَ اتفق السندباد وصديقه التاجر؟
٢	حول ماذا دارت الأحاديث بين السندباد والتُجار على ظهر المركب؟
٣	علامَ أفاق السندباد مذعوراً؟ تحدث عن شعوره خلال ذلك؟
٤	إلى أين وصلت السفينة؟ هل كان القبطان يعرف هذه الجزيرة من قبل؟
٥	هل استمر السندباد سعيداً على هذه الجزيرة؟ ماذا رأى؟
٦	ماذا فعل الوحشان؟ والمسافرون؟ ومن بقي على الجزيرة؟
٧	ماذا رأى السندباد عن بعد؟ هل وجد للقبة منفذاً؟
٨	كيف انتهت المعركة بين الطائر والوحش؟
٩	ماذا أبصر السندباد في منامه؟
١٠	هل ترجم الحلم حقيقة؟ كيف؟
١١	لم كانت أرض الوادي تلمع؟ هل اهتم السندباد لذلك؟ لماذا؟
١٢	ماذا رأى السندباد بعدما دخل إلى المغارة المظلمة؟
١٣	كيف تمكن السندباد من الخروج من المغارة؟
١٤	هل فرح السندباد بما رآه بعد خروجه من المغارة؟ وكيف تصرّف؟
١٥	بمن التقى هناك؟ وماذا كانت النتيجة؟
١٦	ماذا كان جواب الرجل عندما عَرَضَ عليه السندباد أخذ كنز الماس؟ وهل تعتقد أنه مُحِقٌ في ذلك؟
١٧	علامَ اتفق الولد البكر والسندباد؟ هل نجحا في ذلك؟
١٨	ماذا فعل الوالد حين رأى السندباد وابنه البكر عائدَيْن بالماس؟ وما كان موقفه من السندباد ومن الماس؟
١٩	ما رأيك بموقف الوالد من الأرض؟ علّل.

قاموس الألفاظ

أ

آنفاً: سابقاً.

أجواز الفضاء: معظم الفضاء.

أرض بلقع: مُقفرة.

أعتى: أقوى.

أعقبها: تلاها - أتى بعدها.

أقتات به: آكله.

أمتطي: أركب.

أنشب مخالبه: علّقها.

انفضّ الجمع: تفرّق.

أولى: أحقّ وأجدر.

ت

التائهون: الضالّون.

تحاملت على نفسي: تكلفت وتحمّلتُ على مشقّة.

تشبثت: تعلّقتُ.

تعذّرت الرؤية: تعسّرت وامتنعت.

توغّلنا: ذهبنا وأبعدنا.

خ

خطر جسيم: عظيم

الخلقة: الهيئة.

خُيّل إلي: اعتقدت - توهّمتُ.

الدثار: ما يتغطّى به النائم.

س

السرداب: قناة تحفر تحت الأرض لينفذ منها إلى الخارج.

ش

شهقتُ: تردُّد البكاء في صدري.

ض

ضراعة: ضعف. (دُعاء).

غ

غشية: غيبوبة.

ق

قابع: منزوٍ ومستتر.

قشعريرة: ارتعادة - رجفة.

ك

كَلَلْتُ: تعبتُ.

م

متبرّماً: متضجراً - متضايقاً.

متعاقبة: متتالية.

الموحشة: الخالية والمنقطعة.

ن

نظر شزراً: نظر بعين محمرّة من الغضب.

و

وادٍ سحيق: شديد العمق.

ي

يتربص بنا: ينتظرنا.

يتماسك: يملك نفسه

يختلّ: يفسد.

يلعق: يلحس.

يؤنس وحدتي: يُسلّيني



رحلات السندباد

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت



ISBN 978-614-414-286-8